قال هيرودوتس واصفاً سلاح الاشوري: والاشوريون كان لهم خود نحاس مسرودة ومشبكة بطريقة غريبة صعبة الوصف وحرابهم وتراسهم وخناجرهم تشبه تقريباً سلاح المصريين وفوق ذلك كانوا يحملون دبابيس خشب لها كتل من حديد ودروعاً زردية الخ » (١

ولا يزال السواد الاعظم من العراقيين يستعملون الى يومنا هذا المقوار والرمح والسيف والخنجر والمقلاع وقلما تجد حارساً او ناطور بستان او رجلاً من البادية بلا مقوار مشكوك في منطقته وبلا خنجر معلق على جنبه. واذا مررت في طرق بغداد او في براريها تشاهد مراراً بايدي الصبيان مقاليع يرمون بها الطير او يقاتلون بها بعضهم بعضاً ودويّ طيران الحجر في الهواء يطنّ في زوايا الآذان مما يذكرنا بحرب القدماء بهذه اللعبة — هذا ما رأينا جمعهُ من عادات الاشوريين التي ورثها عنهم العراقيون ولو تتبعنا احوال الشعبين لوجدنا غير ذلك كثيراً وفي هذا كفاية

القديس يوحنا فم الذهب واللغات الشرقيّة

نبذة للاب مغربي لامنس اليسوعي

ورد في التأليف الحديث الذي وضعهُ حضرة الخوري ميخائيل غبريل وهو « تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانيّة المارونيّة » ما نصُّهُ (ص٥٢٥) : « كان فم الذهب من انطاكية من الأمّة السريانيّة ». فرأينا ان نبحث في هذه العجالة عمّا يتضمّنهُ هذا الزعم الجديد من الصحة

اذا تصفّحنا أعمال هذا المعلم الجليل وفخر الكنائس الشرقيّة وجدنا انّ كتبة ترجمتهِ اجمعوا على انهُ وُلد في انطاكية ونشأ فيها. غير اننا لم نعلم من امر أسرتهِ الّا القدر القليل. فاننا نجهل اصلها هل كانت كمعظم اهل سوريّة من العنصر الارامي (٢

(١ Hérodote II, I. 7-1861

(٢ ان تفرُّع شعب سوريا من العنصر الآرامي رأيٌ دافع عنها ائمة المستشرقين كالسمعاني ورينودوت والخوري مرتين وايبود (A. Amiaud) والاب پاوبزو البندكتي والدكتوران ىكل

او من غيره. فانهُ لمكن ان يكون اصلها من الأمة السوريَّة ولكن لا دليل على ذلك. وغاية ما نعرفهُ عن اسرتهِ انها كانت مُثريةً وغدة العيش وان لم تكن من الاسر العريقة في الشرف. وكان ابوهُ قائدًا في الجيش الروماني يُدعى سيكُندوس وهو اسمٌ روماني. وكذلك اسم خالتهِ كان لاتينيًّا. امَّا والدتهُ فكانت تُدعى باسم يوناني أنثوسا (١. فترى من هذه الاعلامات انهُ لا يمكننا ان نقطع في اصل القديس يوحنا فم الذهب فننسبهُ الى عنصر آرامي او يوناني. وممَّا لا نرتاب فيهِ انَّ اسرتهُ اتخذت تمدُّن اليونان وعاداتهم الجارية في ذلك العهد في حواضر الشام ومدنها الكبرى فصارت شبه اليونانية (hellénisée) كالمستعربين بين العرب وكالمتفرنجين في ايامنا

امَّا لغة القديس الذي نحن بصددهِ فلا نتردد في القول انها كانت اليونانية وانَّ فم الذهب كان يجهل السريانية. هذا ما يُستنتج من درس اعمال القديس. لكننا نورد هنا شاهدين صريحين كنَّا اثبتناهما سابقًا في المشرق (٣: ٢٦٩) فزعم البعض اننا اخترعناهما او زوَّرناهما. فالعود اليهما احمد

والشاهد الاول ورد في سير القديس عن الشهداء حيث يذكر فم الذهب انَّ كثيرين ممن استشهدوا دُفنوا خارجًا من انطاكية في ربوضها ثمَّ يردف كلامهُ قائلا: « لا تكترثوا ايها الحضور لرطانة هؤلاء الشهداء ولغتهم الاعجمية (βάρβαρον φωνήν) . . فهل من احد يعبأ باختلاف اللغات لمَّا يجمعنا ايمان واحد ». فمن هذا النصّ الصريح نستنتج (اولًا) ان لغة القديس يوحنا فم الذهب كانت اليونانية لانهُ يدعو لغة هؤلاء الشهداء لغةً اعجميَّة ورطانة بربريَّة. (ثانيًا) انَّ لغة القرويين المجاورين لانطاكية ليست

(Bickell) وفستل (Nestle) وغيرهم دوَّنا اسماءهم في مقالتنا المنشورة بالفرنسيَّة عن الاخ (فرا) غريغون ولبنان في القرن الخامس عشر (ص٣٥). وزد على الذين ذكرنا هناك رينان في كتاب تاريخ اللغات الساميـة (١: ٢٧٧) وماس لاتري (Mas-Latrie) في تاريخ قبرس (١: ١٠٤) وانخيس سميث في الابحاث البيزنطية الجزء السادس ومجلَّة المشرق المسيحي (سنة ١٨٩٨ ص ٢٧٨ وسنة ١٨٩٩ ص ٢٥٠ و ٢٦٠ وسنة ١٩٠١ ص ٢٤١) والمجلَّة الاسيويَّة (١٨٩٨ الجزء الاول ٢٤١ و ٢٦٧) وغيرهم الخ

١) فان اضفنا الى هذه الاسماء اسم يوحنَّا المبراني لا نجد الَّا اسمًا واحدًا يونانيًّا في عائلة فم الذهب. — وجاء في النشرة المنوَّنة (Bullet. de Corresp. hellénique) في تاريخ سنة ١٩٠٠ (ص ٣٨٩) ان يونانيَّة اهل انطاكية لم تكن فصيحة وكانت مشحونة بالفاظ لاتينية دخيلة

اليونانية (١ . وهذه اللغة الاعجمية كان يتكلّم بها لا الشعب فقط بل جمهور الكهنة والرهبان والاساقفة لانّ اكثر هؤلاء الشهداء كانوا من جملتهم

ولنا في تاريخ تاودوريطوس اسقف قورش ما يؤيد نتيجتنا هذه الثانية ويبيّن صريحاً انّ النساك المجاورين المتعبدين لله قريباً من انطاكية كانوا يجهلون اليونانيّة

اخبر تاودوريطوس عن الناسك الشهير مكدونيوس معاصر القديس يوحنا فم الذهب انهُ (٢ كان يسكن في بئر فلقّبهُ الاهلون لذلك باسم Guba اي جبّ (٣ . فلما خبر قداسته الى فلابيانوس اسقف انطاكية فاستدعاهُ الى المدينة وأحضرهُ الرُتبَ المقدّسة . وفي اثناء الذبيحة استقدم السابح القديس ووضع عليهِ اليد فجعلهُ كاهناً دون علمهِ . فلمّا خرج الشعب من الكنيسة وشعر الراهب بما جرى لهُ من امر تكهنهِ لانهُ لم يكن يفهم اليونانية ومعاني ليتورجيّتها اخذ منهُ الغيظ مأخذهُ ورفع عصاهُ يتهدّد من يريد ان يصدّهُ عن الرجوع الى مسكنهِ اذ كان يتخيّل ان الكهنوت يُفقدهُ نعمة الزهد والتنسّك (٤ ويوجبهُ بخدمة النفوس كرعاة الكنيسة . وفي هذا الحادث شاهدٌ جلي على انّ الناسك المذكور والشعب الذي أُقيم لرعايتهِ لم يفهموا اللغة اليونانية

وفي ترجمة مكدونيوس هذا دليل آخر على انهُ هو والجباء الذين كانوا في المناسك المجاورة لانطاكية كانوا يجهلون اليونانيّة . وذلك انّ تاودوسيوس الملك كان بانهُ

---

١) قرأنا في كراسة حديثة لحضرة الاب الفاضل قسطنطين باشا ان في ظهراني انطاكية كان الناس يتكلّمون يونانية ركيكة عامّيّة . الّا ان قول يوحنا فم الذهب يبطل هذا الزعم مطلقاً . فانهُ بوصفهِ هذه اللغة بانها « بربريّة » يعني اليونانية — ولو كانت حضرتهُ يجهل انّ لغة اهل انطاكية نفسها لم تكن فصيحة كما شهد بذلك فيلوستراتس في ترجمة ابولونيوس (راجع Bulletin de Corresp. hellén. 1900 p. 289) . ومن الامور الغريبة انّ العلماء لم يكتشفوا في انطاكية من الكتابات اليونانيّة القديمة الّا النزر القليل . حتّى انّا لو جُمعت لما تجاوزت ستة اسطر . راجع المؤرخ مسن (Mommsen) في تاريخهِ الروماني ج ٥ ص ٢٦٠ ووادنتون (كتابات سورية ص ٤٣٦) وفورستر (Jahrbuch 1897) وغيرهم كثيرين — هذا وننتهز هنا الفرصة لنشكر لحضرة الاب قسطنطين لطفهُ في مبادلتهِ . فيا ليت غيرهُ احتذى في ذلك حذوهُ

٢) راجع أعمال الاباء اليونان لمين (ج ٨٢ ص ١٣٠٦)

٣) من السريانية كُبّه حُفرة وفي هذه التسمية دليل على انّ الشعب كان يتكلّم بالسريانية

٤) راجع تفاصيل هذه الحكاية البهجة في تاريخ تاودوريطوس (ص ١٣٠٨)

انَّ شغباً حدث في انطاكية وثار اهلها وشوَّهوا صوره فارسل عاملين من عمَّاله ليعاقبا بالموت كل من دخل في هذه الفتنة. فبلغ هذا الخبر مسامع السيَّاح الذين كانوا بجوار المدينة فاسرعوا لينقذوا اخوتهم المسيحيين من هذه المحنة العظيمة ودخلوا على عاملي الملك واخذوا يتهرونهما ويزجرونهما ليعدلا عن قصدهما (١. هذا ما اخبر به القديس يوحنَّا فم الذهب لكنَّهُ لم يُفدنا عن اللغة التي تكلَّم بها هؤلاء. وانما ذكر عنهم « انهم قومٌ لا يلبسون سوى رداء خشن ويعيشون في الجبال والغابات ». وقد تلافى تاودوريطوس سكوت فم الذهب عن لغة الجبلاء المذكورين فقال عن مكدونيوس مقدَّمهم انهُ انتهر عمَّال الملك « بالسريانية وكان الترجمان ينقل كلامهُ اليهم باليونانية (٢ ». فليس من دليل اوضح من هذا لتأييد قولنا عن شيوع السريانيَّة في جوار انطاكية بل في انطاكية نفسها كما يدلُّ على ذلك وجود تراجمة بين اهلها ما لم يقل القائل انَّ عمَّال الملك كان يصحبهم ترجمان وسعي حيثما ساروا وهذا يزيد قولنا حجَّةً

فلنأتينَّ الآن الى الشاهد الآخر الذي زعم ايضاً البعض اننا مرَّرناهُ وبدلنا معناه وهذا الشاهد ورد في الميمر التاسع عشر لاهل انطاكية فاه به ذهبي الفم في حفلةٍ تقاطر اليها اهل القرى المجاورة لانطاكية. فممَّا قال الخطيب المصقع ما تعريبهُ الحرفيّ: « اني أعدُّ هذه الحفلة كاعظم الاعياد رابهجها لحضور اخوتنا الذين شرَّفوا مدينتنا بقدومهم وزانوا هذه الكنيسة. نعم انَّ هؤلاء القوم يختلفون عنَّا باللسان (Λαὸς κατὰ τὴν γλῶτταν ἐνηλλαγμένος) لكنَّ ايمانهُ يوافق ايماننا ». فهذا دليل آخر لا يُنقض على الفرق الكائن بين لغة الخطيب وسامعيه ولغة قرى انطاكية. ولا شكَّ انَّ اللغة المشار اليها كانت السريانية كما سبق ونصَّ عليه في حاشية الكتاب صاحبا (٣ الترجمتين اللاتينية والفرنسيَّة بقولهما: « ان اهل قرى انطاكية كانوا يتكلَّمون بالسريانيَّة »

هذا لعمري امرٌ غريب انَّ الشعب والاكليروس في جوار عاصمة كبرى

---

١) راجع الميمر ١٢ من ميامر القديس يوحنَّا فم الذهب لاهل انطاكية

٢) راجع تاريخهُ الرهباني في أعمال الاباء اليونان ج ٨٢ ص ١٦٠٩ و ١٦١٠

٣) وهما البندكتي الشهير مُنتفوكون (Montfaucon) وبارايل (Bareille)

كانطاكية يبلغ عدد سكانها نيفًا ونصف مليون من النفوس داوموا على التكلم بالسريانية رغمًا عن تمدُّن هذه المدينة وسيطرتها مدَّة سبعة اجيال متوالية. فكيف لم تنتشر اللغة اليونانية بينهم مع انَّ الايمان المسيحي كان واحدًا كما شهد القديس يوحنا ذم الذهب ولم تنفصل القلوب في ذاك الوقت الانشقاقات الدينية كالنسطوريَّة واليعقوبية اذ لم تظهر هذه البدع الَّا بعد ذلك بنحو خمسين سنة

فهذا مشكلٌ حاولنا حلهُ في مقالة سابقة بيَّنَّا فيها انَّ اللغة السريانية كانت اكثر انتشارًا من اليونانيَّة غير انَّ ادلَّتنا لم ترض بعض المتقدمين فنسبونا الى التزوير. والحق يقال اننا لم نُوضح الامر كما اوضحهُ قبلنا احد آباء الكنيسة اليونانية الممتازين وهو تاودوريطوس فانهُ ليس فقط يشهد بالاجمال على تكلُّم اهل بلاد الشام بالسريانيَّة لكنَّهُ قد عدَّد اكبر اقطار سوريَّة مفصلًا اسماء المتكلمين بها فقال (١ : « ان لغة السوريين والامم المجاورة للفرات والفلسطينيين والفينيقيين هي السريانية (٢».

ولعلَّ بعضًا من قرائنا بعد ما اتينا به من الشواهد المقتطفة من اعمال القديس يوحنا ذم الذهب وتاودوريطوس يغضون قول القديسة سيلفيا(٣ فينسبون الى انطاكية ما روتهُ عن اورشليم حيث قالت « ان فئة من اهل القدس يعرفون اليونانية والسريانية وفئة اخرى لا يفهمون سوى اليونانية وفئة ثالثة يتكلَّمون فقط بالسريانية » (٤ فينتج من هذا ان ثُلثي المدينة كانوا يعرفون اللغة السريانية وهذا لعمر الحق قسم صالح

اما نحن فنرضى لاثبات مدَّعانا باقل من ذلك. قال العلامة روبنس دوڤال من اكبر معلمي اللغة السريانية في كتابهِ عن الآداب السريانية (ص٤—٥) انَّ اهل سوريَّة بعد

---

١) راجع اعمال الاباء اليونان لمين ج ٨٠ ص ٢٢٧

٢) وقال ذم الذهب : « ان السوريين مع كونهم من الاعجميين قد نقلوا الاسفار الالهيَّة الى لغتهم » اعمال الاباء اليونان ج ٥٩ ص ٣٢

٣) لا « القديس سلفيا » كما جاء في كرَّاسة حضرة الاب قسطنطين باشا (ص ٥٢)

٤) اما حضرة الاب قسطنطين باشا فقد عرَّب هذا النصّ وزاد عليهِ الغاظًا غيَّرت معناها وها نحن نذكر ترجمتهُ ونضع بين معكَّفين ما زادهُ الناقل ليرى القراء ان كنَّا نحن من المحرفين قال (ص٥٢) : « في هذه البلاد فئة من السكان يعرفون اليونانية والسريانية. وفئة أخرى [يونان الاصل] ولا يعرفون الَّا اليونانية والباقي [وهم القليل] لا يعرفون الَّا السريانية » فليحكم الحكم عن ضبط هذه الترجمة

فتح الساوقيين اتخذوا التمدُّن اليوناني اما اللغة العامية فبقيت السريانية ». وزد على ذلك ما رواهُ الاب رتڤال في مقالتهِ عن تدمر وزينب انهُ لم يوجد في هذه المدينة ناسخ يوناني في أيام عزّها

فلنَعُد الان الى القديس يوحنا فم الذهب قائلين انهُ ثبت مما تقدم ان لغة هذا الرجل العظيم كانت اليونانية. ولكن هل كان يعرف السريانية ايضاً فالامر ممكن لا يسعنا تأكيدهُ. ومن المقرَّر انَّ اساقفة كثيرين من سورية كانوا يعرفون السريانية كاسقف اورشليم الذي صادفتهُ القديسة سيلفيا فقالت عنهُ انهُ كان يتكلَّم باليونانية « مع معرفتهِ بالسريانيَّة » (etsi siriste noverit). وكذلك القديس ايفانيوس كان يُتقن السريانيَّة وهي لغتهُ الاصليَّة ويعرف العبرانية ثم درس اليونانية في الاسكندريَّة فلم يُحكمها. هكذا روى عنهُ فوطيوس (١

اما تاودوريطوس فمعرفتهُ للغة السريانيَّة تلوح مما سبق وتظهر ظهور الشمس في تفاسيرهِ للكتب المقدَّسة فانهُ كثيرًا ما يشير الى النسخة السريانية ويترجم آيات منها ويقابل بينها وبين النسخة السبعينيَّة او العبرانيَّة (٢

ويوسعنا ان نذكر غير هؤلاء من كتبة اليونان ومشاهيرهم مثلاً مترجم اعمال القديس ايرونيموس الى اليونانية (٣

ومهما كان الامر انهُ لا ريب في القول بان اللغة اليونانيَّة هي لغة القديس يوحنا فم الذهب اما معرفتهُ للسريانيَّة فليست بمتوَّرة. فهذا ما يظهر من مطالعة اعمال القديس. ولو اردنا لزدنا على هذه الحجج ما يؤيدها اثباتًا مثال ذلك انَّ فم الذهب عند ذكرهِ السوريين يلقبهم بالاعاجم ويذكر لغتهم كلغة قائمة بذاتها مختلفة عن اليونانية (٤ — ومن

---

١) راجع مجادلتي القديس ايرونيم ضدَّ روفينس. وترجمة القديس ايفانوس في اول اعمالهِ في مجموع الآباء اليونان

٢) راجع في اعمال الآباء اليونان ج ٨٠ : ص ٧٢, ٧٤, ١٠١, ٢٢٧, ٤٨٣, ٨٦٤, ١٠٠٥, ١٤٢٠, ١٤٥٤ الخ — وج ٨١ : ص ٤٠٨, ٤٢٢, ٤٥٥, ٤٧٥, ٤٧٧, ٤٨٤ الخ — وج ٨٢ : ص ٢٨٥, ١٢٠٦, ١٢١٠ الخ ونرجح ان تاودوريطوس كان يعرف اللغة العربية هو والقديس سمعان العمودي ويظهر ذلك من تاريخ سيرة هذا الناسك الشهير

٣) راجع مجلة Muséon, 1901 p. 296

٤) راجع اعمال الاباء اليونان (ج ٥٩ ص ٢٢)

ذلك قولهُ في محل آخر « انَّ الاسفار الالهية لم تكتب في لغتنا لكن في العبرانية (١ » فقولهُ « لغتنا » يدلُّ على انَّ لغتهُ كانت اليونانية — ومنهُ قولهُ في شرح آية من الكتاب الكريم « ويشهد بذلك الذين يعرفون اللغة السريانية (٢ » فمثل هذا لا يقولهُ عادةً رجل عارف بلغة اجنبيَّة

وخلاصة الكلام ان قول حضرة الخوري ميخائيل غبريل انَّ « يوحنا فم الذهب كان من الأمة السريانية » ليس بقول ثبت يحتاج الى ادلَّة لم نجد لها من اثر في التاريخ حتى عهدنا الحاضر والسلام

الكثلكة في القرن التاسع عشر

نظرٌ للاب لويس شيخو اليسوعي (تتمةٌ لما سبق)

٢ اميركة

لا نشك ان الذين طالعوا مقالتنا السابقة عن نجاح الكثلكة في اوربَّة تالهم لذلك العجب العجاب وشكروا الله على اعلائهِ كعب كنيستهِ بين جميع الدول المتمدنة . على انهُ تعالى عزَّ وجلَّ لم يقصر مفاعيل قدرتهِ على اوربَّة وحدها بل افاضها بكرم على بقيَّة انحاء المعمور فان اعتبرنا الدنيا الجديدة وجدنا الكنيسة الكاثوليكيَّة فيها بلغت من العز والتقدم حيث لم تبلغ الآمال . فانَّ اميركة في قسميها الشمالي والجنوبي رأت الكثلكة في مقام رفيع بعد ان كانت منزويةً في بعض بلادها لا تستلفت اليها سوى انظار القليلين

(اميركة الشماليَّة) شعَّت انوار الكثلكة في اميركة الشماليَّة حتى انَّها تبهر اليوم عيون كل الناظرين . فمن ذلك انَّ المرسلين الكاثوليكيين دخلوا منذ عهد قريب في اقصى اميركة الشمالية في جزائر غرونلند وإسلند وبشَّروا باسم المسيح بين قبائل تلك البلاد التي لا يعيش فيها الَّا بعض قبائل الإسكيمو ومن لا رغبة لهُ في الحياة فلم

١) فيلج ٥٣ ص ٤٢ ٢) في الحلّ ذاته